المقدمة

ان حياة العبقرى تنبع من عالم أسمى ، لذا فهى تعيش غريبة عن حياة سائر الناس . وهذا يفسر ما عساه يبدو فى كيان العبقرى من الشذوذ . فلا ينبغى أن تفهم حياته فهما هندسيا ، ولا أن يتخذ مقياس عقله شكلا منطقيا ، ولا أن تستعرض أيام وجوده فيما تقاس به حياة غيره من الناس فى تصرفاتهم وتقلباتهم ، وفى مجرى الحوادث وآثارها فيهم ، وفى خضوعهم للبيئة وتأثيرها عليهم .

وبين يدينا الآن من ألوان العبقرية سفر مفصل يقدم « فردريك شوبان » الى قراء العربية ، ويعرض له فى مراحل حياته المختلفة فى اطار من التحليل والتعليق .

ولم يكن من الميسور أن يلتمس « شوبان » الا فى مجموعة من المصادر والمراجع والوثائق التاريخية ، وفى لغات متعددة . على أن هذه المجموعات الضافية لم تخل فى أحيان كثيرة من التناقض والتضارب ، فكان على المؤرخ الأمين أن يستجمع ويحلل ويقارن ويوازن ويضع جميع الحوادث تحت منظار البحث الدقيق حتى يستخلص الحقيقة من هذه التيارات المتعارضة والآراء المتناقضة . وهذا ما أخذت به نفسى عند تصنيف هذا الكتاب ليكون بالنسبة الى تاريخ « شوبان » أحد مصادره العلمية العالمية ، محتويا على عصارة العقول الفاحصة التى تبارت فى حلبة التصنيف والكتابة

عنه مائة عام متواصلة . وهو بهذا يعتبر آخر ما سجل التاريخ وخاتمة ما انتهت اليه البحوث الى الآن .

ولا ندعى لهذا الكتاب أنه التفصيل الجامع والموسوعة الشاملة لكل خطوات « شوبان » وتراثه الفنى فان ذلك غير مستطاع فى مؤلف واحد . وانما نهدف الى التعريف به والابانة عنه بما فيه كفاية وغناء لما يتطلبه المثقف والدارس ومحب الاطلاع . وفيما بعد ذلك يتسع مجال المزيد لمن يريد .

وقد أتاحت لنا حياة « شوبان » فرصة ذهبية نكشف فيها عن شخصية بارزة للفنان الذى يكون فى حياته مثال الانسان الرفيع ، والوطنى الغيور ، والصديق الوفى ، والابن البار ، والأريحى العطوف ، والمحب المتفانى ، والفنان المستغرق ، والموسيقى الشاعر ، والقارىء المستطلع ، والرحالة الباحث ، والمكافح الصبور . وفى هذه الحياة أمثلة بارزة لأسمى طرائق التربية ووسائل التهذيب . وهى تحقق كثيرا من الأهداف التى يطمح اليها ولا يستغنى عنها المربون . وما ظنك بعبقرى والده معلم مجرب ، وهو أيضا معلم تخرج فى مدرسة الأيام بعد مدرسة أبيه .

ولو أتيح لنا أن نقدم « شوبان » فى منظره ومظهره ومخبره بريشة المصور فماذا عسى أن نتبين من هذا العبقرى ؟.. نرى شابا وسيم الطلعة ، طلق المحيا ، متوسط القامة ، رقيق الحاشية ، تعلو وجهه ابتسامة خالية من كل مرارة حتى فى أمر آلامه ،

له شعر غزير ناعم كالحرير ، وقد بدا أنفه فى اعوجاج خفيف على الأسلوب الرومانى ، يشبه كثيرا ملامح والدته . وهو متجمل فى ملبسه ، متأنق فى حركاته ، أرستقراطى فى مظهره وفى معاملاته كأنبل الأشراف . لا يسع من يراه لأول مرة الا أن يحكم بأنه انسان من طراز غير عادى . فهو مرح الروح ولكن قلبه مثقل بالجوى والأحلام ، قليل التحدث عن أحاسيسه ، محبب الى المجتمعات ، تتخاطفه « صالونات » باريس مما كان يضطره الى التردد على ما يربى على الثلاثين منها ليرضى من لا يحصى عددهم من محبيه والمتشوفين الى الاستمتاع بفنه وعبقريته وشخصيته المحبوبة . وقد كلفه ذلك ثمنا باهظا من صحته التى أفناها فى تلك الليالى الساهرة التى سنرى الى أى حد كان أثرها فى حياته .

وكان عظيم الاعتزاز بفنه ، مقدرا له فى غير ما صلف ولا غرور . ولم يحاول قط أن ينتقص فنانا فى قيمته ، بل كان يقدر لزملائه فضلهم ويعرف لفنهم قدره . على أنه لم يكن ليمتدح شاعرا أو موسيقيا أو مصورا مالم يكن ذلك صادرا عن ايمان مبعثه الحمد والثناء . فربما تنكر لانتاج أقرب أصدقائه لديه اذا لم يجد فيه ما يرتاح اليه .

واذا قلنا ان « شوبان » كان انسانيا محسنا بارا فسترى فى هذا السفر أمثلة تنطق بذلك وحدها . وحسب القارىء أن يعلم أن أولى حفلاته فى طفولته كانت لمساعدة شاعر هرم ، كما كان آخر حفل له فى حياته من أجل مساعدة مهاجرى بولونيا فى لندن .

وكان أحب شيء اليه مواساة الصديق ؛ بقدر ما كان يبغض من يحاول استغلاله .

وكان « شوبان » يمقت الأثرة ، ويحتقر عباد المادة . أقام مواطنه عازف الكمان الشهير كارل لبنسكى (Carl Lipinski) عدة حفلات فى باريس عام ١٨٣٥ فالتمس منه « شوبان » أن يخصص ايراد بعض حفلاته لمهاجرى بولونيا الفقراء فاعتذر بأن ذلك يغضب روسيا التى يعتزم اقامة بعض الحفلات فى عاصمتها . فوجد « شوبان » فى هذه الاجابة من القحة والنذالة ما جعله يتخلى عن صداقته الى الأبد .

ومع أن « شوبان » كان مسيحيا كاثوليكيا فلم يكن يميل الى الجدل الدينى أو النقاش السياسى ، وان كان لا يرفض الاستماع الى الأحاديث فيهما .

أما اتجاهه الفنى فهو الأخذ بأقرب جديد وأحدث مدرسة . وقد وجد فى باريس أول عهده بها قطبين يرفعان علم الاتجاه الموسيقى الجديد وهما برليوز ولست . وكانا أكبر مناضلين يكافحان ضد مدرسة الكلاسيك . ومنذ عام ١٨٣٢ ارتبط « شوبان » بهذين العلمين وانتظم فى عقدهما عاملا معهما على تحقيق رسالة المذهب الجديد الذى أطلق عليه الفن « الرومانتيكى » . وقد ظل مخلصا لهذا الاتجاه طوال حياته .

ولم يكن يعنيه أمر الدعاية لمؤلفاته ومحاولة فرضها والاعلان عنها . وحسبنا فى ذلك ما كتبه الى أحد أصدقائه يقول :

« انى لعلى ثقة من أن القيمة الحقيقية لمؤلفاتى هى التى ستعلن عن نفسها . أما انها ستعرف اليوم أو غدا فذلك عندى سواء » .

وكان « شوبان » يبالغ فى الاهتمام بانتاجه والعناية باجادته ، مما سد على النقاد مسالك الانتقاص الذى حاولوا تلمسه فى فنه فلم يجدوا اليه سبيلا . بل لقد كان هو ناقد نفسه يلقى بما لا يروقه فى سلة المهملات ، مما لو وقع لغيره لأعجب به وعده من المفاخر .

ولما تألق نجمه فى سماء باريس وأصبح فنانا تعتز به أمة ، وتفاخر به قومية ودولة ، أخذت الأجناس تتنازعه وتتبارى فى نسبته اليها لتضيف به صحيفة مجد فنى الى سجل مفاخرها . فهذه ألمانيا التى لا تنقصها ثروة النبوغ الموسيقى بفضل أعلامها الأفذاذ العديدين تحاول أن تنسب « شوبان » اليها بحجة أن أسرته تنحدر من احدى عشائر اللورين وهى أرض ألمانية . وتلك فرنسا تنسبه اليها بعراقة الأصـــل ، والدم ، والبيت ، والســـلالة ، والقــرابة ، والاسم . أما « شوبان » نفسه فقد كان معارضا لكل شىء يخالف نسبته الى بولونيا . فبولونيا هى وطنه الذى يعتز به فينطق بلغته ، ويعتد برنينها الموسيقى ، ويصفها بثرائها فى التعبير الذى يجمع بين الرقة والقوة . وقد نطق تاريخ حياته فى جميع مراحلها بمبلغ اعـــتزازه ببولونيا قولا واحساسا وانتاجا . وفى أدوار تاريخه من هذا الكتاب ما يوقفك على مبلغ تمسكه بحب بولونيا التى هى عماد قوميته ومبعث وطنيته ، فكأنه يقول بلسان الشاعر العربى :

بلاد بهـــا نيطت علىّ تمـــائمى   وأول أرض مس جلدى ترابها

* * *

وهذا المصنف عن « شوبان » يصدر لمناسبة الذكرى المئوية لوفاته . فقد غرب نجم عبقريته الفذة فى السابع عشر من أكتوبر عام ١٨٤٩ ، ففى مثل هذا التاريخ من أكتوبر سنة ١٩٤٩ يكون قد انقضت مائة عام على وفاته . وقد اعتزمت دولته بولونيا أن تقيم لتكريم هذه الذكرى وتخليد تلك العبقرية مهرجانا عاما تعقد فيه أكاليل المجد لهذا الذى جعل قلبه وقفا على حب وطنه ، وموسيقاه نشيدا لاعلاء فن بلاده .

وقد شاءت الحكومة المصرية أن تساهم فى تكريم هذا التراث العالمى ، وأن ترفع صوتها فى طليعة من يقدرون الفنان العظيم قدره من دول العالم وشعوبه . فمصر أم الموسيقى ومصدر اشعاعها الأول منذ فجر التاريخ ، وعلى شاطىء نيلها جلجلت أبواق الفن بتقديس الآلهة ، تلبى اليوم الدعوة لتكريم ذكرى « شوبان » وهى جد مغتبطة بأن يتاح لها اظهار شخصيتها الفنية واثبات كيانها الموسيقى . والأمة التى تستطيع أن تعبر عن وجودها فى أعياد الموسيقى ومناسباتها هى فى الواقع تترجم عن وجودها فى جميع نواحى النهضات ، لأن الموسيقى هى التصوير الصادق لكل ما فى حياة الأمم . وقد فوضت مصر أمر تنظيم القيام بواجبها والمساهمة بنصيبها فى هذا التكريم الى لجنة مشكلة من أجل الشخصيات التى يتمثل فى مجموعها مزايا العلم والفن والمكانة فى الدولة .

ولما كان من أهم ما تتجه اليه جهود هذه اللجنة تصنيف كتاب عن « شوبان » فى مناسبة هذا المهرجان ، وكنت معنيا فى جميع

دراساتى الموسيقية بهذه الناحية التاريخية من حياة هؤلاء الأعلام ، ومن بينهم عبقرى بولونيا ، هذا الذى ألممت بتاريخه فى عدة فصول ، منها ما أصدرته عام ١٩٢٤ ومنها ما ظهر عنه أيضا فى كتابى « أعلام الغرب » فى السنة الماضية (١٩٤٨) . لهذا فقد أولتنى اللجنة شرفا عظيما يوم أسندت الىّ مهمة وضع هذا الكتاب . وأرجو أن يكون هذا المجهود المتواضع وافيا بالغرض الذى تنشده اللجنة ، وأن أكون فى الوقت عينه قد قدمت لأبناء وطنى ولقراء العربية تاريخ شخصية ممتازة جمعت فى طرافتها من الحوادث والمزايا والآثار الفنية الخالدة ما يسترعى اهتمام كل مؤرخ ،وعناية كل باحث ، واطلاع كل أديب . فحياة شوبان فى نشأته ، وتربيته ، وأطوار نبوغه ، وفى انتاجه ومآثره ، ومسراته ومآسيه ، قصة انسانية يتسع فيها مجال العبرة والتأمل لمن أراد أن يضعها فى كل ناحية من هذه النواحى تحت مجهر الفحص والتحليل . وما أحرى بنا فى نهضتنا الحاضرة الى دراسة رجال من نوع « شوبان » .

وانى لآمل أن تجد مصر والعروبة فى هذا المؤلف ما اتجهت اليه من هذه المعانى التاريخية والفنية ، والمزايا الأدبية والانسانية . كما أرجو أن تكون مصر قد أدت بهذا الكتاب واجبها نحو تقدير هذا الفنان ، بما هو جدير بمقامها الدولى فى الفن ، ومكانتها العالمية فى الموسيقى ، متجها الى الله أن يكتب لنهضتنا الموسيقية دوام التوفيق فى ظل جلالة مليكنا المعظم ، حامى الفنـــون وراعى الموسيقى ، فاروق الأول ، حفظ الله ملكه ، وأدام باليمن عهده .

المؤلف